فاطمة سيف المزروعي

اُدْنُ منِّي

تربويات في حب الأبناء

AUSTIN MACAULEY PUBLISHERS™
LONDON • CAMBRIDGE • NEW YORK • SHARJAH

أُدْنُ منِّي

أُدنُ منِّي لأهمسَ في أذنيكَ حبًّا.

ادنُ منِّي لأعانقَ فؤادَكَ شوقًا.

أُدنُ منِّي يا صغيري فلَن تجدَ بعدَ اليومِ إلَّا هَديًا محمديًّا، يضيءُ لكَ دربَكَ، ليرفعَ عن عينيكَ أستارَ الظلامِ، فترى النورَ شروقًا أبديًّا ينيرُ لكَ حياتَك ومماتَكَ وآخرتَكَ.

أُدنُ منِّي، ففي القلبِ حديثُ شوقٍ لا ينتهي، وحبٌّ لا ينضبُ.

أُدنُ منِّي، ففي قربِكَ دفءٌ، وفي قربِكَ أنسٌ، وقربُكَ سرُّ سعادتي دومًا.

أحبُّ قربَكَ، فأنتَ جزءٌ لا يتجزَّأُ منِّي، في وقتٍ ما حوَتكَ أحشائي، فكنْتَ فيها نطفةً لا تكادُ تُرى، وما زلتَ تكبرُ في بطني جنينًا، أُتابعُ تطوُّرَكَ شهرًا بعدَ شهرٍ، أستشعرُ حركاتِكَ وتقلُّباتِكَ، وآنسُ بركلاتِكَ المباغِتة.

عشْتُ معكَ حلمًا جميلًا، تخيَّلتُ فيه تفاصيلَ وجهِكَ الوضيء، ولامسْتُ فيه أطرافَ أصابعِكَ المخملية، وبكلِّ شوقٍ كنتُ أنتظرُ مجيئَك.

وكانَ اللقاءُ ليسَ كأيِّ لقاءٍ، ففي أوجِ الألمِ وشدّتهِ كنْتُ أترقّبُ سماعَ صوتِكَ، وما إن سمعْتُه حتَّى تبدَّدَ كلُّ ألمٍ ليولدَ معكَ حبٌّ جديدٌ، وارتسمتِ البسمةُ تُسابقُ دموعَ الفرحِ بخروجِكَ صغيري.

بنيَّ.. اعلمْ أنَّ رحلتي معكَ كانَت مِن أجملِ الرِّحلاتِ وأمتعِها، حيثُ كنتَ لي مُعلمًا في حينِ كنتُ أعتقدُ أنِّي أنا مَن يعلِّمُكَ، كبِرنا معًا، وتعلَّمنا معًا، وحملْنا الحبَّ معًا على اختلافٍ في أفهامِنا، واختلافٍ في آرائِنا، واختلافٍ في تصوراتِنا، وكأنِّي بهذهِ الاختلافاتِ قد بَنَتْ بيننا جسورٌ مِن التَّواصلِ جديدةٌ، احتجْنا إليها في منعطفاتِ رحلتِنا الشَّاقَّة.

وها قد كبِرَ الزَّرعُ، واستوى على سوقِه، وها هو اليومَ يخطُّ أحلامَهُ، ويرسمُ طموحاتِه الجميلة، ويرفعُ لها بكفِّ الهمَّةِ ألفَ شراعٍ وشراع.

أبحرْ بُنيَّ..

أبحرْ حبيبي، فقد بتَّ اليومَ ربَّانَ السفينة.

أبحرْ بُنيَّ، فلكَ حلمٌ يجبُ أن تعيشَهُ.

أبحرْ على بركةِ اللهِ، فقدْ باتَ الطَّريقُ أمامَكَ واضحًا.

بينَ طيَّاتِ السُّطورِ

كتابي ما هو إلا خواطرُ أمٍّ عاشَت لحظاتِ التَّربيةِ بكلِّ كيانِها، وبكلِّ أحاسيسِها.

ما هو إلّا عبراتُ أمٍّ سارَتْ في دروبِ التربيةِ، فتعثَّرتْ مئاتِ المرَّاتِ، واستندَت إلى عشراتِ النظرياتِ، مررْتُ بكلِّ الطرقاتِ مستعينةً بالكتبِ والمواقعِ والخبراتِ، فقرأتُ النظريةَ ونقيضَها، ووجدْتُ الطريقةَ وضدَّها، فأدركْتُ يقينًا أنَّ التربيةَ القويمةَ تبدأُ مِن الأهدافِ الواضحةِ، وأهدافُكَ هي سرُّ حياتِكَ، بل سرُّ خلقِك وسرُّ وجودِك في الحياةِ.

﴿وهنا كانت لي وقفةٌ مع قولِ ربّي: **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...**﴾

[البقرة: 30]

وقوله:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

[الذاريات: 56]

إذًا أنا وأنت وأبناؤنا خلفاء في هذه الأرضِ، يخلفُ بعضُنا بعضًا لعمارتِها ولتوحيدِ اللهِ تعالى، فوجودُنا هنا عابرٌ وسريعٌ، كما أنَّ وجودَنا هنا لسببٍ واضحٍ وهو عبادةُ اللهِ وعمارةُ الأرضِ، فعلمْتُ أنَّ التربيةَ يجبُ أن تكونَ قائمةً على هاتين الركيزتين.. أن أبيّنَ لأبنائي أنّهم هنا ومعي لفترةٍ وجيزةٍ، والمطلوبُ منَّا أمران لا ثالثَ لهما، عمارةُ الدُّنيا وعبادةُ الله،

وفي الدُّعاءِ الّذي كانَ يُردّدُهُ النبي – صلى الله عليه وسلَّم – : "ربَّنا آتِنا في الدّنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النَّارِ" كنْتُ قد وقعْتُ على ضالتي، وهدَاني اللهُ لها بفضلِه، فباتت التربيةُ في نظري أكثرَ وضوحًا، أدركْتُ ما المطلوبُ منّي كأمٍّ، فصارَ الهدفُ واضحًا، والطريقُ بيّنًا، فقمْ بنا نسيرُ على بركةِ اللهِ تعالى، وقُمْ بنا نحقّقُ سرَّ الوجودِ، ونوحّدُ الربَّ المعبودَ.

هل أسَّسنا كمربّين هذا الفهمَ في قلوبِ مَن نعولُ ومَن نُربّي؟ هل أخبرتَ ابنَكَ الصغيرَ لماذا هو موجودٌ في هذه الحياةِ؟ ولماذا خلقَهُ اللهُ تعالى؟ ماذا تتوقَّعُ منهُ بعدَ أن يكبرَ؟ ماذا يتوقعُ هو أن يكونَ عليهِ بعدَ عشرينَ عامًا مثلًا؟

كلُّ هذه المعرفةِ لهذهِ الحقيقةِ تُلقيكَ على عتباتِ الرَّبِّ (تبارك وتعالى) مُستعينًا به وبصفاتِه وبأسمائِه؛ لِينيرَ لكَ الطَّريقَ (طريق التربية)، فهو العونُ، وهو المعينُ، وهو الرّبُّ، وهو المُربي، وهو السميعُ، وهو المجيبُ.

وعندَما يكونُ المددُ سماويًّا فأيقِنْ ثمَّ استبشرْ بأنَّ الغرسَ سيكونُ ربانيًّا.

وبهذهِ النظرةِ الواضحةِ قرَّتْ عيني، وتجمَّعَ شتاتُ أمري، وباتَ الدَّربُ واضحًا، وبِتُّ أستمتعُ بالتربيةِ وبهذهِ الرّحلةِ الإيمانيّةِ بكلِّ تحدياتِها، وأترقَّبُ الخيرَ فيها وإن تأخَّرَ، فأنا على يقينٍ مِن ربّي بأنَّهُ لن يضيعَ مَن استعانَ بهِ، وتوكَّلْ عليه وسارَ إليهِ.

هنا في هذا الكتابِ شذراتٌ متناثراتٌ مِن ذاكَ الأساسِ الذي بدأتُ أبني عليهِ تربيتي ومسيرتي معَ أبنائي مُستحضِرةً فيه قولَ ربّي:

﴿أَفَمَن أَسَّسَ بُنيانَهُ عَلى تَقوى مِنَ اللَّهِ وَرِضوانٍ خَيرٌ أَم مَن أَسَّسَ بُنيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانهارَ بِهِ في نارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهدِي القَومَ الظّالِمينَ﴾

[التوبة: 109]

أردْتُ أن يكونَ بُنيانِي قويًّا وبيتي قويًّا، وأسرتي قويةً، ثمَّ سألتُ اللهَ أن يُعينني فيما أريدُ وأرجو.

وفي هذهِ الصفحاتِ دروسٌ ليسَتْ كأيِّ دروسٍ، فقد قرأتُها في كتابِ الحياةِ التي أعيشُها، كانَت ومضاتٍ مِن فكرٍ تبُاغتُني على حينِ غرّةٍ، فآخذُ قلمي لأدونَها.

إنها خواطر وتأمُّلاتٌ لأمٍّ أحبَّتْ أبناءَها بكلِّ جوارحِها، أمٍّ أخذَتْ المدادَ مِن دموعِها والفكرةَ مِن تجاربِها.

لن تجدَ ها هُنا أيَّ نظرياتٍ ولا تنظير في التربيةِ، ولن أستشهدَ بأقوالِ العلماءِ والفلاسفةِ والنفسيين.

ما ستجدُهُ هنا تحديدًا قلبُ أمٍّ أخذَتِ القلمَ، تحدُوه آيات مِن الذكرِ المبين، ونورٌ مِن قبسِ المربّي الأوّلِ – عليه أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم – وبدأَ يخطُّ ويكتبُ نصحًا وحبًّا.

ستجدُ عبارتِي ممزوجةً بأمومتي ومحبتي وخوفي معًا، فلا تعجبْ مِن هذا الطَّرحِ، فأنا هُنا أخاطبُ تلكَ القلوبَ التي تعبَت مِن المسيرِ، مُعتقدةً أن لا سواها في الميدانِ يسيرُ، فباتَتْ تتباطأُ خطواتُها، وتتلاشَى أنفاسُها، وتُلقي عن عاتقِها همَّ إكمالِ المسيرِ.

فقُمْ وانهضْ وأكملِ المسيرَ، فنحنُ اليومَ بأمَسِّ الحاجةِ لظهورِكَ معنا، لخطواتِك ووجودِك في ساحتِنا.. ساحةِ المربّينَ، صانعي الأجيالِ الذين يبنون في أممِهم المبادِئ بلا تحريفٍ ولا تزييفٍ ولا تبديل.

صورةٌ ومَثلٌ:

مَثلي ومَثلُكِ أيَّتُها الأمُّ ونحنُ نخوضُ غمارَ التربيةِ، نبني الأسسَ، ونقيمُ القواعدَ، نريدُه صرحًا جميلًا مكينًا قويًّا وحولَنا مَن يحاولُ هدمَ البناءِ، وتضييعَ الأبناءِ، مثل ما شبَّهَ به – عليهِ الصلاةُ والسّلامُ – نفسَه وأمتَه حينَ قالَ:

"مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِب وَالْفَرَاش يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلتُونَ مِنْ يَدِي".

صحيح أخرجه مسلم

نعم.. هذا تشبيهٌ يصدقُ على كلِّ أبٍ وأمٍّ يخافَان على أبنائهما تلكَ الفتنَ الموقدةَ مِن حولِنا، فنحنُ كمَن يحاولُ أن ينقذَهُم مِنها وهُم يتفلتونَ مِن أيادينا إلّا مَن رحمَ ربُّكَ، فكوني طوقَ النجاةِ لهم، ولا تتركيهم في لججِ الحياةِ يخوضونَها بقليلِ علمٍ، وقليلِ فَهمٍ، تغرقُهم في ظُلماتِها، ولكن سَلِّحيهم بالإيمانِ، بالتربيةِ، وبالتعليمِ، ثمَّ اتركيهُم يخوضونَها على نورٍ مِن اللهِ وبصيرةٍ، وليَبقَ دعاؤكِ لهم بظهر الغيبِ طوقَ نجاةٍ يحميهم ويقيهم الفتنَ.

وهُم (الأبناءُ) كما بيَّنَ – عليهِ الصلاةُ والسلامُ – كالفراشِ في ضعفِهم وقلَّةِ علمِهم، يُغريهم النورُ مِن أيِّ مصدرٍ كانَ، فهم يحلِّقونَ نحوَهُ، بل وأكثرُ مِن ذلكَ هم يُلقونَ بأنفسِهم في أحضانِهِ، وما علمُوا أنَّ بعدَ النورِ نارًا محرقةً مهلكةً.

لافتةٌ في آية:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾

[الإنسان:3]

الهدايةُ مِن اللهِ وليسَتْ منكَ، أنتَ أعجزُ مِن أنْ تُهدِيَ أبناءَك، فخفِّفِ الضَّغط عن نفسِكَ، وتوضَّأ بماءِ اليقينِ، وارفعْ أكفَّك للسماءِ، وقُلْ: يا ربِّ اهدِهم فيمَن هديتَ، وتولَّهم فيمَن توليْتَ، وعافِهم فيمَن عافيْتَ، وبارِكْ لهم فيما أعطيْتَ، فلا هادي إلّا الله.